(ألم يجدك يتيماً فأوى ، ووجدك ضالاً فهدى)
(ووجدك عائلا فأغنى)

قال سلمان الفارسي عليه السلام مخاطباً لعمر :

« كنت ضالاً فهداني الله عز وجل بمحمد

وكنت عائلاً فأغناني الله بمحمد

وكنت مملوكاً فأعتقنى الله بمحمد

هذا حسبي ونسبي »

الكافي الشريف : ١٨١/٨ ، رجال الكشي : ٥٩/١ وسنده صحيح

إملاءات

سماحة الشيخ أحمد القيدوم الماحوزى

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحة الشيخ أحمد القيدوم الماحوزي أدامه الله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ هل أن وصف الضلال ـ والعياذ بالله ـ وكذا الهداية في هذه الآية مرتبط بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله ، أم أن للآية معنىً آخر كاشف عن كمالات النبي صلى الله عليه وآله .

والجواب :

بسمه تعالى

ذكر الأعلام والمفسرون أقوالاً عدة في مفاد هذه الآية الكريمة ، أهمها ستة ، وهي :

الأول : ما قاله قوم من الحشوية ـ بتعبير ابن أبي الحديد ـ من أنه صلى الله عليه وآله ـ والعياذ بالله ـ كان كافراً قبل البعثة ، واحتجوا بهذه الآية الشريفة ، وبقوله تعالى : ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ [1] .

الثاني : ما قاله الإيجي : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ أي أن الضلال كان قبل النبوة ، وأما ما بعد النبوة ففي الأمور الدنيوية ، لقوله : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ .

الثالث : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ أي جاهلاً عن تفاصيل الإيمان والإسلام والكتب والشرائع فهداه الله عزّ وجل لمعرفة التفاصيل ، وكذلك قوله تعالى ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ﴾ ، أما أصل الإيمان ـ وهو الإيمان بالله عز وجل وكتبه ورسله ـ فممّا لا ريب فيه [2] .

---

(١) شرح نهج البلاغة : ٩/٧ * تفسير البغوي : ٤٩٩/٤ ، قال : يعني ضالاً عمّا أنت عليه ، فهداك للتوحيد والنبوة ، وظاهره أنه يتبناه .

(٢) تأويل مختلف الحديث : ١٠٦ ، لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٦٧ * تفسير الثعلبي : ٢٢٦/١٠ ، ونقله عن

الرابع : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ أي ضائعاً في شعاب مكة فهداك إلى جدك عبد المطلب وردّك إليه ، فعن أبي الضحى عن ابن عباس قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله ضل وهو صبي صغير في شعاب مكة ، فرآه أبو جهل ، منصرفاً من أغنامه ، فرده إلى جدّه عبد المطلب ، فمنّ الله سبحانه عليه بذلك ، حين ردّه إلى جدّه على يدي عدوه [1] .

ورى البلاذري بسنده عن عباس بن هشام عن أبيه عن جده عن أبي صالح أو عكرمة : أن حليمة ظئر رسول الله صلى الله عليه وآله لما قدمت به من بلادها ، أضلته بأعلى مكة ، فوجده ورقة بن نوفل ورجل آخر من قريش ، فأتيا به عبد المطلب ، وقالا : هذا ابنك وجدناه متلددا بأعلى مكة ، فسالناه من هو ؟ فقال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، فأتيناك به ، فلذلك قول الله تبارك وتعالى ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ [2] .

الخامس : بمعنى : أن كل إنسان فى نفسه فاقد للهداية ، مفتقر إلى هداية الحق تعالىٰ ، ولا يستثنىٰ منه النبي صلى الله عليه وآله أيضاً ، فقوله : ﴿ ووجدك ضالاً ﴾ أي ما كنت واجداً للهداية من قبل نفسك ، بل الله تعالى هو الذي هداك ، ولولا هدايته لكنتَ ضالاً [3] .

قال العلامة الطباطبائي : المراد بالضلال عدم الهداية ، والمراد بكونه صلى الله عليه وآله ضالاً حاله في نفسه مع قطع النظر عن هدايته تعالى ، فلا هدىً له صلى الله عليه وآله ولا لأحد من الخلق إلا بالله سبحانه وتعالى ، فقد كانت نفسه

الحسن البصري والضحاك وشهر بن حوشب وابن كيسان * تفسير السمعاني : ٦/٢٤٤ * تفيسر النسفي : ٤/٣٤٥ * تفسير ابن الجوزي : ٨/٢٦٩ ، ونسبه إلى الجمهور منهم .

(١) تفسير الثعلبي : ١٠/٢٢٦ .

(٢) أنساب الأشراف ، المتوفى ٢٧٩ : ١/٩٥ * السيرة النبوية لابن هشام ، المتوفى ٢١٨ : ١/١٠٨ .

(٣) أشار له الشيخ المفيد رحمه الله فى الإفصاح : ٢١٢ .

في نفسها ضالة ، وإن كانت الهداية الإلهية ملازمة لها منذ وجدت ، فالآية في معنى قوله تعالى : ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ [1] ... ثم ذكر الأقوال الأخرى ومرّضها .

السادس : ﴿ ألم يجدك يتيماً ﴾ أي وحيداً فرداً، لا مثل ولا نظير لك في الخلق ، ﴿ فآوى ﴾ إليك الخلق ، ﴿ ووجدك ضالاً ﴾ أي مضلولاً ، بمعنى ضالاً عند قومك ضائعاً عندهم ، ﴿ فهدى ﴾ الخلق لمعرفتك ، وعرفهم فضلك وعظمتك ومقامك ، ﴿ ووجدك عائلاً ﴾ تعول أقواماً بالعلم ، ﴿ فأغنى ﴾ أي أغناهم الله تعالى بعلمك وكمالك .

فهذه الآية الشريفة في مقام ابراز كمالات النبي صلى الله عليه وآله ، فمتعلق الأفعال : آوى ، وهدى ، وأغنى ، ليس هو ذات النبي صلى الله عليه وآله ، بل الخلق ، فيكون معنى الآية : آوى الخلق بك ، وهدى الخلق بك ، وأغنى الخلق بك [2] ، لا أن المعنى : آواك ، وهداك ، وأغناك ، وهذا هو معنى « بكم بدأ الله ، وبكم يختم ، وبكم ينزل الغيث ، وبكم يمسك السماء أن تقع على الارض إلا بإذنه » .

وهذا هو قول سلمان الفارسي في الحديث الصحيح مخاطباً لعمر بن الخطاب بعد قال له : أخبرني من أنت ، ومن أبوك ، وما أصلك ؟ فقال : أنا سلمان ابن عبد الله ؛ كنت ضالاً فهداني الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وآله ، وكنت عائلاً فأغناني الله بمحمد صلى الله عليه وآله ، وكنت مملوكاً فأعتني الله بمحمد صلى الله عليه وآله ، هذا نسبي ، وهذا حسبي [3] .

---

(١) الميزان في تفسير القرآن : ٢٠/٣١٠.

(٢) تفسير السلمي : ٢/٤٠١ ، قال : قال ابن عطاء : وجد اليتيم فآوى بك ، ووجد الضال فهدى بك ، ووجد العائل فأغنى بك .

(٣) الكافي الشريف : ٨/١٨١ ، بسند حسن كالصحيح ـ بل صحيح ـ عن علي بن إبراهيم عبد الله بن

فالأقوال السابقة ناظرة إلى أن متعلق الأفعال الثلاثة هو ذات النبي صلى الله عليه وآله ، وهذا القول الأخير قائل بأن متعلقها هو الخلق لا النبي صلى الله عليه وآله ، وهذا هو المنقول عن الأئمة : الباقر والصادق والرضا عليهم السلام بعدة أسانيد ، كما نقله أيضا الخاصة والعامة عن ابن عباس بأكثر من سند .

وقريب من هذا القول ما قاله ثَعْلب : ﴿ ووجدك ضالاً ﴾ ، قال : يعني من قوم ضلال ، ومن كان فى قوم نسب اليهم [1] .

وقال أبو هلال العسكري : والضلال بمعنى الضياع ، يقال هو ضال في قومه ، أي ضائع ، ومنه قوله تعالى ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ أي ضائعاً فى قومك لا يعرفون منزلتك ، ويجوز أن يكون ضالاً أي في قوم ضالين ، لأن من أقام في قوم نسب إليهم ، كما قيل : خالد الحذاء ، لنزوله بين الحذائين ، وأبو عثمان المازني ، لاقامته في بني مازن لم يكن منهم [2] .

وقال أبو حيان الأندلسي : ﴿ ووجدك ضالاً ﴾ : لا يمكن حمله على الضلال الذي يقابله الهدى [3] ، لأن الأنبياء معصومون من ذلك ، قال ابن عباس : هو ضلاله وهو في صغره في شعاب مكة ، ثم رده الله إلى جده عبد المطلب ، وقيل : ضلاله من حليمة مرضعته ، وقيل : ضل في طريق الشام حين خرج به أبو طالب ، ولبعض المفسرين أقوال فيها بعض ما لا يجوز نسبته إلى الأنبياء عليهم الصلاة

محمد بن عيسى الأشعري بنان صفوان بن يحيى عن حنان عن أبيه سدير عن الإمام الباقر عليه السلام * رجال الكشي : ٥٩/١ ، بسند صحيح عن حمدويه بن نصير عن محمد بن عيسى الأشعري أو اليقطيني عن حنان .

(١) تاريخ دمشق : ج ١٠/٣٤ * تفسير السمرقندي المتوفى ٣٨٣ : ٥٦٨/٣ * تفسير السلمي المتوفى ٤١٢ : ٤٠١/٢ * تفسير ابن عطية : ٤٩٤/٥ ، نقلاً عن الكلبي * تفسير ابن الجوزي : ٢٦٩/٨ ، نقلاً عن ابن السائب * تفسير القرطبي : ٩٨/٢٠ ، قال : وهذا قول الكلبي والفراء ، ونحوه عن السدي .

(٢) الفروق اللغوية : ٣٩٣ * تفسير الثعلبي : ٢٢٦/١٠ ، نقل مثله عن ابن يحيى ومحمد بن علي الترمذي * تفسير فرات : ٥٦٩ ، بسنده عن ابن عباس قال : (ووجدك ضالاً) يقول : في قوم ضال ـ يعني الكفار ـ .

(٣) هذا هو الارتكاز الفطري ، الذي يتلاءم مع مقام النبي الأمي صلى الله عليه وآله .

والسلام ، ولقد رأيت في النوم أني أفكر في هذه الجملة فأقول على الفور : ﴿ ووجدك ﴾ أي وجد رهطك ، ﴿ ضالاً ﴾ فهداه بك ، ثم أقول : على حذف المضاف ، نحو ﴿ واسئل القرية ﴾ [1] .

وقال ابن أبي الحديد : ﴿ ووجدك ضالاً ﴾ أي ووجدك بعرضية الضلال ، فكأنه ضال بالقوة لا بالفعل [2] .

المحاكمة بين الأقول :

أما القول الأول : ففساده أوضح من أن يخفى على أحد ، ولم يقل به أحد ممن يعتنىٰ بقوله من الخاصة والعامة لسخافته ووهنه .

وأما القول الثاني وهو قول الإيجي : ففي شقه الأول كالقول السابق واضح الفساد ، وأما شقه الثاني فإن العالِم بالمعاد عالِم بالمعاش ، والنبي صلى الله عليه وآله عند الخاصة معصوم أيضاً في تشخيص الموضوعات الخارجية ، ولذا كافىء صلى الله عليه وآله خزيمة المعتقد بكونه صلى الله عليه وآله معصوماً في الموضوعات الخارجية بأن لقّبه بلقب « ذو الشهادتين » ، والبحث في ذلك في موضعه .

وأما القول الثالث : من كونه صلى الله عليه وآله مؤمناً بالله تعالى وكتبه ورسله بشكل اجمالي ، إلا أنه كان جاهلاً بتفاصيل هذا الإيمان ، فمعنى قوله تعالى ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ أي جاهلاً بتفاصيل الإيمان فهداك لمعرفتها بعد النبوة وبعد أن كنت جاهلاً بها .

فيرد عليه عدة من الأمور ، وعمدتها الثاني والسادس :

---

(١) تفسير البحر المحيط : ٤٨١/٨ ، وهذا نظر عميق وصحيح .
(٢) شرح نهج البلاغة : ١٠٨/١١ .

أما الأمر الأول:

أن مادة «ضالاً» استعملت في الكتاب والسنة ولغة العرب في معاني متعدد متناغمة مع بعضها البعض، فزعم أن المادة هٰهنا بمعنى «جاهلاً» تحتاج إلى دليل، والحال أنها بمعنى «ضائعاً» هي الأصل والأكثر استعمالاً، فهي بمثابة قولنا: عالم ضالاً بين الجهلة.

فمادة « ضلّ » أوسع من حيث المعنى من مادة « جهل »، فهي تأتي بمعنى ضاع وتاه وحار ونسى وغاب واختفى، وقد تأتي بمعنى « جهل ».

والأول ـ ضاع ـ هو الأكثر قصداً واستعمالاً من مادة «ضل»، بحث يمكن استبدال مادة «ضاع» بدل «ضل» فى أكثر الموارد، فيقال: ضل بين الناس قدره ـ أي ضاع ـ، وعالم ضل بين الجهال، وضل زيد نفقته، فيكون معنى الآية: « ووجدك ضائعاً فهدى »، بل هذا الحمل هو المتعيّن، لأن مادة « ضلّ » لا تدل إلا على أمر وأحد وهو الضياع.

قال ابن فارس: « ضل » الضاد واللام أصل صحيح، **يدل على معنى واحد**، وهو ضياع الشيء وذهابه فى غير حقه، قال ابن السكيت: يقال: أضللت بعيري، إذا ذهب، وضللت المسجد والدار، إذا لم تهتد لهما ...[1].

وقال الجواهري: ضل الشيء يضل ضلالاً، أي ضاع وهلك، والضالة: ما ضل من البهيمة[2].

وقال العسكري: والضلال بمعنى الضياع، يقال: هو ضال في قومه، أي ضائع، ومن قوله تعالى ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ أي ضائعاً في قومك لا

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ٣٥٦/٣.
(٢) الصحاح: ١٧٤٨/٥.

يعرفون منزلتك [1] .

قلت : وقال الشاعر :

قــد ضـلّ مـن لا يـبتغي ود الأكـــارم بـــالكلام

وقال شاعر آخر :

شربت الإثـم حـتى ضـل عـقلي كـذاك الإثــم يـفعل بـالعقول

وعليه : فإذا قلنا بأن « ضل وهدى » مرتبط بذاته صلى الله عليه وآله ـ كما هو اختيار هذا القول ـ فإن أول ما يتبادر إلى الذهن من معنى «ضل» هو «ضاع» ، لأنه الأصل الأولي في هذه المادة ، واستعمالها في معنىً آخر يحتاج إلى قرينة .

كما أن سائر المعاني المذكورة لمادة « ضل » تتناسب مع الهـدايـة أيـضاً ، فيمكن أن يكون المعنى : « ووجدك تائهاً فهدى » ، أو « ووجدك ناسياً فهدى » ، أو « ووجدك متحيراً فهدى » ، إلا أن الأصل الأولي كما قلنا بحمل المادة على معناها الأول ، إلا مع وجود القرينة الصارفة لذلك .

فزعم أن المراد من الآية هو : « ووجدك جاهلاً فهدى » دون غيره من المعاني المتبادرة أولياً يحتاج إلى قرينة واضحة ، وهـي مـفقودة فـي المـقام ، كـما أن استعمال مادة «ضلّ» محل «جهل» قليلة الاستعمال بحسب الظاهر الأولي .

وتقسيم الجهل إلى جهل كلي وجزئي لا دور له أصلا لتوهم أن «ضل» بمعنى «جهل» ، إذ أن بقية المعاني كذلك يمكن أن تقسم إلى كلية وجزئية .

ومن الواضح أن الآية الكريمة لا رائحة فيها على أن هذا الضلال جزئي ، فلو ادعى مدعي على أن ظاهر الآية يدل عـلى أن الضـلال كـلي ، لكـان مـصيباً ، وتقييدها يكون بدليل آخر من آية أو رواية .

---

(١) الفروق اللغوية : ٣٩٣ .

على أن التقسيمات اللاحقة للمعاني بعد تعيّنها لا دور لها في معرفة المراد الجدي من الألفاظ ، لأنها متأخرة رتبة .

وعليه فالجزم أو استظهار أو تقريب أن معنى الآية « ووجدك جاهلاً فهدى » لا دليل على تعيّنه دون سائر المعاني أصلاً .

نعم : لا نمانع من أن الجهل قد يكون سبباً للضلال والضياع ، إلا أنه لا ينحصر به ، بل ثمة أسباب أخرى ، فإذا كان ثمّة ضلال فليس بالضرورة أن يكون سببه هو الجهل ، بل قد يكون النسيان ، والتيه ، والتردد ، وسائر المعاني ، فمن زعم أن «ضل» بمعنى «جهل» خلط بين الأسباب والمسببات ، والله العالم .

وأما الأمر الثاني :

أن كلمة « ضالاً » وهي اسم فاعل ، بمعنى « مضلولاً » ، نحو : ماء دافق ، أي مدفوق ، وفرق بين الضال والمضلول ، والجاهل والمجهول ، وضائع ومُضيّع ، فيكون معنى الآية : ووجدك مضلولاً فهدى ، ووجدك مجهولاً فهدى ، ووجدك مَضيّعاً فهدى .

وعليه : من قال أن متعلق « ضالاً » هو ذات النبي صلى الله عليه وآله ؟!! بل متعلقه غيره ، فالضال هنا بمعنى المضلول أي وجدتك مضلولاً عنك ، بإطلاق اسم الفاعل والمراد به إسم المفعول [1] .

فإن كان «ضل» بمعنى «ضاع» يكون المعنى : ألم يجدك مُضَيّعاً فهدى ، وان كان الضلال بمعنى الجهل ، فيكون المعنى : ألم يجدك مجهولاً فهدى .

قال المرتضى علم الهدى رحمه الله : أن يكون أراد بقوله : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ أي مضلولاً عنه فى قوم لا يعرفون حقك فهداهم إلى معرفتك

(١) التبيان في تفسير القرآن للطوسي : ٣٦٩/١٠ * متشابه القرآن لابن شهر آشوب : ٤/٢ * عصمة الأنبياء للرازي : ٩٣ .

وأرشدهم إلى فضلك وهذا له نظير فى الاستعمال ، يقال : فلان ضال في قومه وبين أهله إذا كان مضلولا عنه [1] .

وعليه : فـ« ضالاً » بمعنى مضلولاً ، وهو من إطلاق اسم الفاعل والمقصود منه اسم المفعول ، وقد وقع كثيراً في كلام الشرع والعرب .

كقوله تعالى : ﴿ خُلق من ماء دافق ﴾ أي مدفوق ، وقوله : ﴿ فهو في عيشة راضية ﴾ أي مرضية ، وقوله : ﴿ حرماً آمناً ﴾ أي مأموناً ، وقوله تعالى ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله ﴾ أي لا معصوم ، وقوله تعالى : ﴿ ومن رباط الخيل ﴾ أي مربوط ، وقوله : ﴿ عيناً دافقة ﴾ أي مدفوقة ، وقوله : ﴿ مارج من نار ﴾ أي ممروج ، وقوله : ﴿ في يوم عاصف ﴾ أي معصوف .

ويقال : سر كاتم ؛ أي مكتوم [2] ، وعالم ضال ؛ أي مضلول ، وعلى قارعة الطريق ؛ أي التي تقرعها الأقدام ، وأرض غامرة ؛ أي مغمورة ، ونزلنا حاضرة بني نعم ، أي محضورة ، ولا يصلى وهو حاذق ، أي محذوق ، وبيت عامر ؛ أي معمور ، وذاعرٌ من الله ؛ أي مذعور ، وإله الخلق ؛ أي مألوه ، وراكس قلبه ؛ أي مركوس ، وضامن على الله ؛ أي مضمون ، وريح سافٍ ؛ أي مسفي ، وساحل جميل ؛ أي مسحول ، وأبل سائبة ؛ أي مسيبة ، ولمح باصر ؛ أي مبصر ، وما بالدار صافر ؛ أي أحد يصفر به ، ووجه قاطب ؛ أي مقطوب ، ورأيت خيطاً واصلاً من الأعلى ؛ أي موصولاً .

وخلاصة : أن مجيء اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول كثير جداً في كلام الشرع والعرب ومطّرد ، سيما إذا دل عليه السياق وقامت عليه القرائن .

---

(١) تنزيه الأنبياء : ١٥١ ، في سياق ذكر الأقوال * المنتخب من تفسير القران لابن ادريس : ٣٨٤/٢ .

(٢) قال ابن قتيبة : وقال لي بعض أصحاب اللغة : إنما قيل له غامر ، لأن الماء يبلغه فيغمره ، وهو فاعل بمعنى مفعول ، كما يقال : ماء دافق ، بمعنى مدفوق ، وسر كاتم ، بمعن متكتوم ، وليل نائم ، أي منوم فيه ، غريب الحديث : ٣١٤/١ . فلو أنه ذهب في هذه إلى أن (ضالا) بمعنى مضلول ، لكان أولى له .

فإن قيل : إنه لا خلاف في مجيء اسم الفاعل والمراد منه اسم المفعول ، فيكون اسم الفاعل «ضال» بمعنى اسم المفعول «مضلول» ، كما قال أبو هلال العسكري : « وفاعل بمعنى مفعول كثير في اللغة » ، وأشار إلى ذلك جمهرة اللغويين والمفسرين وشراح الأحاديث الشريفة ، إلا أن اطلاق اسم الفاعل وإرادة المفعول خلاف الظاهر لا يصار إليه إلا بشاهد قوي .

فنقول : هكذا هو الأمر ، فإن اسم الفاعل يختلف هيئةً عن اسم المفعول ، فلا يحلّ محله إلا بقرينة صارفة ، والقرائن متعدة في أن قوله تعالى ﴿ ضالاً فهدى ﴾ هو بمعنى « مضلولاً فهدى » ، نذكر قرينتين ، وكل قرينة كافية في ضرورة الجزم بكون اسم الفاعل المقصود منه في الآية اسم المفعول .

القرينة الأولى :

ما ورد عن أهل البيت عليهم السلام بعدة طرق ، وعن ابن عباس بأكثر من طريق ، تدل على أن أن «ضالاً» بمعنى «مضلولاً» .

فعن ابن الجهم عن الرضا عليه السلام قال : ﴿ ووجدك ضالاً ﴾ يعني عند قومك ﴿ فهدى ﴾ أي هداهم إلى معرفتك [1] .

وفي رواية العياشي ّ : ﴿ ووجدك ضالاً ﴾ ، أي ضالة في قومك لا يعرفون فضلك ، فهداهم إليك [2] .

وعن زرارة عن أحدهما عليهما السلام : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ إليك الناس ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ أي هدى إليك قوماً لا يعرفونك حتى عرفوك [3] .

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ١/١٧٧ .

(٢) مجمع البيان :

(٣) تفسير القمي : ٢/٤٢٧ ، والرواية صحيحية على مذاق سيد الفقهاء الخوئي قدس سره ، وسندها عندنا حسن .

وفي تفسير النعماني بسنده عن أمير المؤمنين عليه السلام في بيان أنواع الضلال المحمود والمذموم ... : فمنهم ما نسبه إلى نبيه على ظاهر اللفظ ، كقوله سبحانه ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ معناه وجدناك فى قوم لا يعرفون نبوتك فهديناهم بك ... [1] .

وروى الكليني والكشي بسند صحيح عن سدير عن الباقر عليه السلام قال : كان سلمان جالساً مع نفر من قريش في المسجد ، فأقبلوا ينتسبون ويرفعون في أنسابهم حتى بلغوا سلمان ، فقال له عمر بن الخطاب : أخبرني من أنت ، ومن أبوك ، وما أصلك ؟ فقال سلمان عليه السلام : « أنا سلمان بن عبد الله ؛ كنت ضالاً فهداني الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وآله ، وكنت عائلاً فأغناني الله بمحمد صلى الله عليه وآله ، وكنت مملوكاً فأعتني الله بمحمد صلى الله عليه وآله ، هذا نسبي ، وهذا حسبي » [2] ، فهذا هو حقيقة هذه الآية المباركة ، ولو لم يكن ثمة قرينة إلا هذا الحديث لكانت كافية ووافية للغاية .

وعن عباية بن ربعي عن ابن عباس عن قول الله تعالى ﴿ ووجدك ضالاً ﴾ قال : منسوباً عند قومك إلى الضلالة ، فهداهم بمعرفتك ... [3] .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ قال : وجدك بين ضالين فاستنقذك من ضلالتهم [4] .

---

(١) بحار الأنوار : ٢٠٨/٥ .

(٢) الكافي الشريف : ١٨١/٨ ، بسند حسن كالصحيح ـ بل صحيح ـ عن علي بن إبراهيم عبد الله بن محمد بن عيسى الأشعري بنان صفوان بن يحيى عن حنان عن أبيه سدير عن الإمام الباقر عليه السلام * رجال الكشي : ٥٩/١ ، بسند صحيح عن حمدويه بن نصير عن محمد بن عيسى الأشعري أو اليقطيني عن حنان .

(٣) علل الشرائع : ١٢٠/١ * معاني الأخبار : ٥٢ * الدر المنثور : ٢٦٢/٦ قال : وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما : وجدك بين ضالين ، فاستنقذك من ضلالتهم .

(٤) الدر المنثور : ٣٦٢/٦ .

وفي تفسير وكيع ، قال ابن عباس رضي الله عنه : ألم يجدك يتيماً عند أبي طالب فآوى إلي أبي طالب يحفظك ويربيك ، ووجدك فى قوم ضلال فهداهم بك إلى التوحيد ... [1] .

فقوله عليه السلام : « يعني عند قومك » وقوله : « ضالة في قومك » ، وقول ابن عباس : « منسوباً عند قومك إلى الضلالة » وغيرها ، صريح في أن اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول ، وأن الضلال ليس من وصف النبي صلى الله عليه وآله .

وعليه : فهذه الروايات تكفي كقرينة على أن اسم الفاعل في الآية بمعنى اسم المفعول ، وضعف الأسانيد لا يؤثر ، إذ أن صحة السند حجة في مقام الافتاء في دين الله عز وجل ، أما نقل اللغة ومعانيها من خلال الروايات الشريفة فهي وإن كانت ضعيفة سنداً ـ عند البعض ـ لكنها أولى من الأقوال المرسلة في الكتب اللغوى كلسان العرب وتاج العروس وغيرهما .

فكما أن أقوال اللغويين في هذه الكتب اللغوية صالحة بأن تكون من القرائن في المطالب المتعددة ، فما في الروايات الشريفة من مسائل لغوية في المسائل المختلفة أشد حجية ، لتقدم رتبة الحديث الضعيف على الحديث المرسل ، ولكون الضعف في أسانيد الروايات لا ربط له باللغة ، فلربما يستدل اللغوي بالحديث المكذوب ، إذ الكذب يكون في مضامين الخبر ، لا من حيث كونه كذباً في استعمال الكلمات في المعاني .

هذا مع إمكان تصحيح حديث الصدوق رحمه الله المروي في كتاب عيون أخبار الرضا عليه السلام ، بتقريب من سماحة السيد السيستاني دام ظله الشريف قال : بأن الصدوق لا ينقل في كتاب عيون أخبار الرضا عليه السلام إلا الأخبار التي يعتمد عليها ، وهذا يناسب لفظة «عين» إذ أن الخبر العين هو الخبر الصحيح ،

(١) مناقب آل أبي طالب : ٢/٢٩٥ .

كما يذكر ذلك في علم الدراية[1] .

وأما الجزء المقتطع من الرواية الشريفة من تفسير النعماني والتي يرويها بسنده عن ابن عقدة عن إسماعيل بن جابر ، فليس في السند من يُتوقف فيه إلا أحمد بن يوسف والحسن بن علي البطائني وأباه ، أما الأول فقد ذكره الوحيد البهبهاني قدس سره وقال : « روى عن محمد بن إسماعيل الزعفراني ، وفيه إشعار بوثاقته » ، وعلق عليه السيد الخوئي قدس سره : « نظر في ذلك إلى ما ذكره النجاشي في ترجمة محمد بن إسماعيل من أنه روى عنه الثقات ، لكن لا دلالة لهذا الكلام على أن كل من روى عن محمد الزعفراني ثقة كما هو الظاهر » .

قلت : له أصل يرويه عنه ابن عقدة ، ووقع كثيراً في أسانيد النجاشي عند ذكر طرقه لأصحاب الكتب ، وقد جزم السيد الخوئي قدس سره بكون توثيقات النجاشي قدس سره لأصحاب الكتب حسية وإن أهمل ذكر الأسانيد ، فعليه يكون أحمد بن يوسف ممن اعتمد عليهم النجاشي في توثيق الرواة .

وأما الثاني فله روايات كثيرة في الكافي الشريف والكتب المعتبرة ، واعتمد عليه الصدوق في الفقيه ، كما روى عنه ابن قولويه في كتابه كامل الزيارات عدة من الروايات ، وهو من رواة تفسير القمي ، ذكره النجاشي وقال : « رأيت شيوخنا رحمهم الله يذكرون أنه كان من وجوه الواقفة » ، وقال ابن فضال : « كذاب ملعون رويت عنه أحاديث كثيرة وكتبت عنه تفسير القرآن كله من أوله إلى آخره ، إلا أني لا أستحل أن أروي عنه حديثاً واحداً » أي كذاب في اعتقاده ومعاندته للحق ، لا في صدق لهجته ، ولذا كتب عنه تفسير القرآن من أوله إلى آخره ، كما ذكره الشيخ في الفهرست ولم يطعن فيه ، وقال ابن الغضائري : « واقف ابن واقف ، ضعيف في نفسه ، وأبوه أوثق منه » ، وقد روى عنه من الأجلاء

(١) اختلاف الحديث : ١٣ .

والكبار إبراهيم بن هاشم والبزنطي وإسماعيل بن مهران ومحمد بن العباس وغيرهم ، فهو منحرف لكن ينظم حديثه في سلك الحديث الحسن ، والله العالم .

وأما الثالث وهو ابن البطائني الأب فهو واقفي عنيد ، وقد أجمعت الطائفة على العمل برواياته ، وقاطعه الأصحاب بعد وقفه ، فهو مذموم الإعتقاد مقبول الحديث .

القرينة الثانية :

إن الله عز وجل أوجب علينا توقير النبي الأمي صلى الله عليه وآله وتنزيهه والخضوع إليه مطلقاً ، كما حثنا على المبالغة في تفخيمه والتأكيد على تعظيمة ، فقال : ﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ [1] ، وقال : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ ، وقال ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ .

فكما أن مقتضى العبودية لله عزّ وجل رفض كل معنى وكلمة ولفظ لا تليق بساحته تعالى ، كقوله ﴿ يضل الله من يشاء ﴾ ، وقوله : ﴿ والله خير الماكرين ﴾ ، وقوله : ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ ، وقوله : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ ، وقوله : ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾ ، وقوله : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ ، بحمل الضلال والمكر والمجيء والنسيان واليدين بما يتلاءم مع كمال عدله وحكمته وتقدسه وتنزهه ، كذلك الأمر بالنسبة للنبي الأمي صلى الله عليه وآله ، لأنه مَثَلَه الأعلى ، وعبده المنتجب ، وحبيبه المنتخب ، وكلمته التامة ، وحجابه الأعظم ، ونوره وبرهانه .

---

(١) سورة الفتح ، وقوله (وتسبحوه) لو أدعى مدعى : أي تسبحوا النبي لما كان مجازفاً ، بل مقارباً ، فإن المراد الثلاث راجعة إما لله وللرسول معاً ، أو لخصوص الرسول صلى الله عليه ، وهو بطبيعة الحال يرجع إلى الله تعالى ، فإن الخضوع له خضوع له تعالى .

فإن كان اللفظ الذي أشير فيه إليه صلى الله عليه وآله له معاني متعددة ، حُملت ـ ضرورة ـ على المعاني الجلالية والجمالية والكمالية المنزهة للنبي صلى الله عليه وآله ، وإلا كان خطابنا معه كخطاب بعضنا مع بعض ، وهو خلاف قوله تعالى : ﴿ وتعزروه وتوقروه وتسبحوه ﴾ ، ونكون مصداقاً من مصاديق ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقارا ﴾ ، إذ أن توقيره تعالى الأتم لا يكون إلا عبر توقيره صلى الله عليه وآله وتفخيمه ، لأنه خلقه الأتم ، وقد أودع الله فيه كل ما يحكي ذاته وعلمه وقدرته وصفاته .

فقوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ وفقاً لهذه القاعدة المهيمنة على كل المعارف ، لا يمكن أن تحمل على النقص والوقيعة [1] ، بل لابد وأن تحمل على الكمال والجمال والجلال والبهاء ، حتى وإن لم يكن لها إلا معنىً واحد عندنا ، والحال أن « ضالاً» قابل بأن يكون المقصود منه اسم المفعول ، فيكون وصفاً كمالياً وجمالياً وجلالياً للنبى صلى الله عليه وآله .

ونعوذ بالله ـ من البلادة وسوء التوفيق وحرمان النعم وعدم هضم المطالب والأقلمة بين البديهيات ـ من أن نتصور أو نتقبل أن «ضالاً» بمعنى كافراً ، أو جاهلاً ، أو تائهاً ، أو غافلاً ، إذ ما أكثر الموارد اللفظية التي حملها الفحول والأعلام على غير ظاهرها لأنها تتنافى مع التسبيح والتقديس والتبجيل والتفخيم ، حتى في فرض عدم وجود معارضٍ لها ، ومن تصوّر ذلك نسبوه للحشوية ، أما مع وجود المعارض ووجود ظاهر آخر موازي رتبة لذلك ، فالحشوية تتبرأ منه .

لذا ورد في الحديث الشريف عن محمد بن مسلم قال : قال أبو جعفر عليه السلام : يا محمد ! إذا سمعت الله ذكر أحداً من هذه الأمة بخير فنحن هم ، واذا

(١) والقول أن الضلال ههنا قبال الهداية نقص ووقيعة .

سمعت الله ذكر قوماً بسوء ممن مضى فهم عدونا[1] .

وروى الكليني رحمه الله بسند موثق عن ابن بكير عنه عليه السلام قال : نزل القرآن بإياك أعني ، واسمعي يا جارة[2] .

وقال المأمون للرضا عليه السلام ـ في الحديث الذي استعرض فيه الإمام عليه السلام عصمة الأنبياء ـ فأخبرني عن قول الله عز وجل : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ ؟ فقال الرضا عليه السلام : هذا مما نزل بإياك أعني واسمعي يا جارة ، خاطب الله عز ودل بذلك نبيه ، وأراد به أمته .

قلت : فإذا كان خطابه تعالى مع النبي الأمي صلى الله عليه وآله بهذه الرقة وهذا الرأفة وهذه المحبة هو من باب : « إياك أعني واسمعى يا جارة » ، فكيف يمكن للانسان أن يتصور نسبة الضلال لسر العالمين صلى الله عليه وآله ، على عقولنا وقلوبنا وأفئدتنا ووجودنا العفى ، إن توهمنا ذلك ، وهذه القاعدة المؤسسة في قواعد التفسير كافية أيضاً لوحدها على ضرورة المسير إلى أن «ضالاً» ، بمعنى «مضلولاً» ، وهي في نفس سياق ما نحن فيه ، من تقديس وتطهير وتبرأة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من كل ما يشوب المخلوقين .

ومما لا خلاف فيه بين المسلمين من وجوب الصلاة والسلام على النبي الأمي صلى الله عليه وآله ومعنى الصلاة عليه هو تنزيهه وتطهيره وتعظيمه .

فعن عبد الرحمٰن بن كثير قال : سألته عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي .... ﴾ فقال : صلوات الله عليه تزكيته له في السماء ، قلت : ما معنى تزكية الله إياه ؟ قال : زكاة بأن برأه من كل نقص وآفة يلزم مخلوقاً ، قلت : فصلاة المومنين ؟ قال : يبرؤونه ويعرفونه بأن

---

(١) تفسير العياشي : ١/١٣ .
(٢) الكافي الشريف : ٢/٦٣١ .

الله قد برأه من كل نقص هو في المخلوقين ، من الآفات التي تصيبهم في بنية خلقهم ، فمن عرفه ووصفه بغير ذلك فما صلى عليه ... [1] .

وكذا الأمر بالنسبة للسلام عليه ، وهي مرتبة تلي الصلاة ، أي الاعتراف بأن الله عز وجل نزهه وسلّمه ، فالسلام بمعنى ذو السلامة في ذاته عن العيب ، وفي صفاته عن كل نقص وآفة [2] .

وخلاصة : يكفى أن نستظهر بل نجزم ونطمئن ونستيقن أن اسم الفاعل فى الآية الكريمة بمعنى اسم المفعول ، لهاتين القرنيتين وغيرهما ، ونحمد الله على سلامة أنفسنا وأذهاننا وعقولنا وذواتنا من القدح في عظمة سر العالمين صلى الله عليه وآله ولو على مستوى الوهم والتصور ، وأعوذ بالله من هذا الوهم القبيح ومن هذا التصور المُردي ، ومن تَصَوَّره فهو وشأنه ، ولا أرى أن له وجهاً أصلاً ، سواء كان من العامة أو الخاصة ، من الكبار أو الصغار ، من العباد أو العلماء ، نسأل الله سبحانه وتعالى السلامة .

وأما الأمر الثالث :

من قال أن متعلق « فهدى » هو ذات النبي صلى الله عليه وآله ، إذ لو كان خصوص ذلك لقال تعالى : « ووجدك ضالاً فهداك » ، وبما أن المعنى الأولي للضلال هو الضياع ، فتكون الآية بمعنى : ووجدك ضائعاً فهدى ، قابل بأن يكون متعلق الفعل الأخير ذات النبي صلى الله عليه وآله ، وقابل بأن يكون متعلقه الخلق ، فتعيين الأول يحتاج إلى قرينة ، وثمة إشارة فى الآية على نحو التلميح أن المقصود من «فهدى» أي هدى غيره إليه .

وهذا ما فسره سلمان الفارسي عليه السلام ، بتقرير من الإمام الباقر عليه

---

(١) جمال الأسبوع : ١٥٥ ، وسنده حسن على مذاقنا .

(٢) القواعد والفوائد للشهيد الأول : ١٦٧/٢ * ملاذ الأخيار : ٥٨/٥ *

السلام في الحديث الصحيح مخاطباً لعمر بن الخطاب بعد قال له : أخبرني من أنت ، ومن أبوك ، وما أصلك ؟ فقال : أنا سلمان بن عبد الله ؛ كنت ضالاً فهداني الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وآله ، وكنت عائلاً فأغناني الله بمحمد صلى الله عليه وآله ، وكنت مملوكاً فأعتقني الله بمحمد صلى الله عليه وآله ، هذا نسبي ، وهذا حسبي [1] .

وأما الأمر الرابع :

إن الآية الكريمة لم تعين متعلق الضلال وبالتبع متعلق الهداية ، فهل المتعلق : ضل عن التوحيد ، أو ضل عن تفاصيل التوحيد ، أو ضل عن الشريعة ، أو ضل عن تفاصيل الشريعة ، أو ضل عن الجادة ، أو ضل عن الصواب ، وقس على ذلك .

قال الشيخ البلاغي رحمه الله تعليقاً على قوله تعالى ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ : يعلم كل مترعرع باللسان العربي أن معنى الضلال مساوق لمعنى التيه وإضاعة الطريق ، ويختلف المراد منه باعتبار متعلقه ، فيقال : ضل الرجل عن التوحيد ، إذا عبد غير الله ، وضل عن الشريعة إذا جهل أحكامها أو خالفها، وضل عن الجادة إذا تاه ، وضل عن الصواب إذا خبط وخلط ، وضل عن الرشد إذا تحيّر في أموره [2] .

وأما الأمر الخامس :

أن هذا القول يتنافى ويتعارض مع الأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السلام وابن عباس ، وقد مر ذكر الروايات عند ذكر القرينة الأولى على أن المراد

---

(١) الكافي الشريف : ١٨١/٨ ، بسند حسن كالصحيح ـ بل صحيح ـ عن علي بن إبراهيم عبد الله بن محمد بن عيسى الأشعري بنان صفوان بن يحيى عن حنان عن أبيه سدير عن الإمام الباقر عليه السلام * رجال الكشي : ٥٩/١ ، بسند صحيح عن حمدويه بن نصير عن محمد بن عيسى الأشعري أو اليقطيني عن حنان .

(٢) الهدى إلى دين المصطفى : ١٦٨/١ .

من اسم الفاعل هو اسم المفعول .

وهذه الروايات وإن لم تكن تامة سنداً عند البعض ، إلا أنها بمجوعها قابلة للاعتماد والاعتضاد ، وهذا كاف في المقام ، سيما مع اعتضاد مضامينها مع الآيات القرآنية الكثيرة الدالة على تحقق استعمال اسم الفاعل والمراد اسم المفعول ، وما قاله عدة من فحول علماء العربية ، فتخرج تلك الروايات من حيز خبر الواحد إلى خبر الواحد المحفوف بالقرائن كما قال شيخ الطائفة في العدة .

مضافاً إلى ما قاله لقمان هذه الأمة سلمان الفارسي عليه السلام تفسيراً وتطبيقاً لهذه الآية ، ونقل الباقر عليه السلام عنه ، وقد تقدم الرواية مراراً .

وعليه : فالإعراض عن هذه الروايات من قبيل التفسير بالرأي المنهي عنه .

وأما الأمر السادس :

نمنع بأن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن عالماً بتفاصيل الدين وأحكام الشريعة قبل بعثته المباركة ، والروايات الدالة على ذلك صحيحة ومستفيضة ومتناصرة ومتواترة إجمالاً .

فمما لا ريب فيه ، إن أول ما خلق اللهُ عز وجل هو نور النبي الأمى صلى الله عليه وآله ، وأنه كان نبياً ـ فعلاً ـ قبل خلق آدم عليه السلام .

ففي صحيحة أبي حمزة قال : سمعت علي بن الحسين عليهما السلام يقول : إن الله خلق محمداً وعلياً وأحد عشر من ولده من نور عظمته ، فأقامهم أشباحاً في ضياء نوره ، يعبدونه قبل خلق الخلق ، يسبحون الله ويقدسونه ، وهم الأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله [1] .

---

(١) الكافي الشريف : ٦٠٩/١ * الأصول الستة عشر ، أصل أبي سعيد عباد العصفري : ١٣٩ ، حديث : ٣٧ * كمال الدين : ٣١٨ .

وفي حسنة مرازم عن الصادق عليه السلام قال : قال الله تبارك وتعالى : يا محمد ! إني خلقتك وعلياً نوراً ، يعني : روحاً بلا بدن ، قبل أن أخلق سماواتي وأرضي وعرشي وبحري ، فلم تزل تهلّلني وتمجدني ، ثم جمعت روحيكما فجعلتهما واحدة ، فكانت تمجدني وتقدسني وتهللني ، ثم قسمتها ثنتين ، وقسمت الثنتين ثنتين ، فصارت أربعة : محمد واحد ، وعلي واحد ، والحسن والحسين ثنتان ، ثم خلق الله فاطمة من نور ابتدأها روحا بلا بدن ، ثم مسحنا بيمينه فافضىٰ نوره فينا[1] .

ومن الواضح أن النور والروح والتقديس والتمجيد والتهليل يتنافى والجهالات ، وأن خلقهم عليهم السلام كان قبل خلق وايجاد كلّ شيء ، فهم عليهم السلام قبل ميلادهم في هذه النشأة علم لا جهل فيه ، وقدرة لا عجز فيها ، ونور لا ظلمة فيه .

فهم عليهم السلام مخلقون من نور الله عز وجل قبل خلق الخلق ، ونور الله عز وجل علم لا جهل فيه ، ونور لا ظلمة فيه ، وعبادته تعالى وتسبيحه وتقديسه فرع العلم بكل التفاصيل .

وفي صحيحة إسحاق بن غالب عن الصادق عليه السلام في خطبة له يذكر فيها حال الأئمة عليهم السلام : إن الله عز وجل أوضح بأئمة الهدى من أهل بيت نبيّنا عن دينه ... فالإمام هو : المنتجب المرتضى ، والهادي المنتجى ، والقائم المرتجيى ، اصطفاه الله بذلك ، واصطنعه على عينه فى الذر حين ذرأه ، وفي البريّة حين برأه ، ظلاً قبل خلق نسمة عن يمين عرشه ، محبواً بالحكمة في علم الغيب ، اختاره بعلمه وانتجبه لطهره ... »[2] .

---

(١) االكافي الشريف : ١/٤٤٠ .

(٢) الكافي الشريف : ١/٢٠٣ * الغيبة للنعماني : ٢٣٢ .

فمن كان محبواً بالحكمة في علم الغيب عند الله عز وجل ، لا يغيب عنه شيء بإذن الله تعالى .

ومن كان قبل ميلاده الأرضي : « مرعياً بعين الله ، يحفظه ويكلؤه بستره ، مطروداً عنه حبائل إبليس وجنوده ، مدفوعاً عنه وقوب الغواسق ونفوث كل فاسق ، مصروفاً عنه قوارف السوء ، مبرءاً من العاهات ، محجوباً عن الآفات ، معصوماً من الزّلات ، مصوناً عن الفواحش كلها ، معروفاً بالحلم والبر في يفاعه ، منسوباً إلى العفاف والعلم والفضل عند انتهائه ، مسنداً إليه أمر والده ، صامتاً عن المنطق في حياته ، فإذا انقضت مدة والده ... »[1] يخطأ بحقٍ من يقول عنه « ضالاً » بأي معنى من المعاني .

ومن يوصف قبل وجوده البدني بأنه : « منسوباً إلى العفاف والعلم والفضل عند انتهائه » يغلط بحق من يقول بأنه جاهلٌ بتفاصيل الدين والشريعة ، ومن توهم ذلك انطبق عليه ما قاله عليه السلام ختاماً لهذا الحديث الشريف : « فليس يجهل حق هذا العلم إلا شقي ، ولا يجحده الا غوي ، ولا يدعه إلا جري على الله » .

وفي صحيحة محمد بن مسلم عنه عليه السلام قال : إن لله عز وجل خلقاً من رحمته ، خلقهم من نوره ، ورحمته من رحمته لرحمته ، فهم عين الله الناظرة ، وأذنه السامعة ، ولسانه الناطق في خلقه بإذنه ، وأمناؤه على ما أنزل من عذر أو نذر أو حجة ، فبهم يمحو السيئات ، وبهم يدفع الضيم ، وبه ينزل الرحمة ، وبهم يحيي ميتاً ، وبهم يمت حياً ، وبهم يبتلي خلقه ، وبهم يقضي في خلقه قضيته ، قلت : جعلت فداك ، من هؤلاء ؟ قال : الأوصياء[2] .

---

(١) وهو تكلمة الحديث المتقدم .

(٢) معاني الأخبار : ١٦ * التوحيد : ١٦٧ ، وسنده من أصح الأسانيد ، عن أبيه عن سعد عن الأشعري

ومن الواضح أن نور الله عز وجل كشف تام لا جهل فيه ، وأن من كان عين الله الناظرة ، وأذنه السامعة ، ولسانه الناطق في خلقه ، فهو محيط بكل شيء بإذن ربه ، وإليه أشار تعالى : ﴿ وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين ﴾ ﴿ وكل شيء أحصيناه كتاباً ﴾ ﴿ وما من غائبة في السماء والأرض إلا فى كتاب مبين ﴾ .

وفي صحيحة عيسى شلقان عن الصادق عليه السلام : يا عيسى ! إن ابني هذا الذي رأيت ـ ويقصد الكاظم عليه السلام ـ ، لو سألته عمّا بين دفتي المصحف لأجابك فيه بعلم [1] .

وروى الصفار والكليني بسند صحيح عن عبد الله بن أبي يعفور قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : يا ابن أبي يعفور ! إن الله واحد متوحد بالوحدانية ، متفرد بأمره ، فخلق خلقاً فقدرهم ـ ففردهم ـ لذلك الأمر ، فنحن هم يا ابن أبي يعفور ! فنحن حجج الله فى عباده ، وخزانه في علمه ، والقائمون بذلك [2] .

ورواه الصدوق رحمه الله ، وأضاف : فنحن هم يا ابن أبي يعفور ! نحن حجة الله في عباده ، وشهداؤه في خلقه ، وأمناؤه على وحيه ، وخزانه على علمه ، ووجه الذي يؤتى منه ، وعينه في بريته ، ولسانه الناطق ، وقلبه الواعي ، وبابه الذي يدل عليه ، ونحن العاملون بأمره ، والداعون إلى سبيله ، بنا عرف الله ، وبنا عبد الله ، ونحن الأدلاء على الله ، ولولانا ما عبد الله [3] .

وفي تذكرة الخواص عن أحمد بن حنبل بسند صحيح عن خالد بن معدان عن زاذان عن سلمان رضي الله عنه قال : سمعت حبيبي رسول الله صلى الله

عن الحسين بن سعيد عن فالة عن أبان عن محمد بن مسلم .

(١) قرب الإسناد : ٢٣٥ ، حديث : ١٢٣٧ ، وسنده من أصح الأسانيد * دلائل الامامة : ٣٣٠ ، بسند آخر عن شلقان .

(٢) الكافي الشريف : ١/١٩٣ * بصائر الدرجات : ٨١ .

(٣) التوحيد : ١٥٢ .

عليه وآله يقول : كنت أنا وعلي نوراً بين يدي الله عز وجل قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف سنة ، فلما خلق الله آدم قسّم ذلك النور جزئين ، فجزء أنا وجزء علي عليه السلام [1] .

والنور الذي بين يديه تعالى لا ظلمة فيه ، وكشف لا نقص فيه ، وبهاء لا حد له ، وساحل يسع عالم الإمكان بأكمله .

وقد تناصرت الروايات على أن الله عز وجل قد اتخذه نبياً قبل خلق آدم عليه السلام .

فروى الحاكم في المستدرك بسنده عن ميسرة قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله : متى كنت نبياً ، قال : وآدم بين الروح والجسد [2] .

وروى بسنده عن أبي هريرة قال : قيل للنبي صلى الله عليه وآله : متى وجبت لك النبوة ، قال : بين خلق آدم ونفخ الروح فيه [3] .

وروى ابن أبي شيبة بسنده عن ابن شقيق أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وآله : متى كنت نبياً ؟ قال : كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد [4] .

---

(١) تذكرة الخواص : ٥٢ ، عن أحمد عن عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن خالد بن معدان * فضائل الصحابة : ٦٦٢/٢ ، حديث : ١١٣٠ ، عن الحسن عن أحمد بن المقدام عن الفضيل بن عياض عن ثور عن ابن معدان * تاريخ دمشق : ٦٧/٤٢ * فرائد السمطين : ، بسنده عن زياد بن المنذر عن الباقر عن السجاد عن جده ٤٢/١ ، حديث : ٧ * الخصال : ٦٤٠ ، بسند آخر * المسترشد : ٦٢٩ ، عن محمد بن أبان عن فضيل بن عياض عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان * مناقب المغازلي : ٩٣ ، عن أحمد بن المقدام العجلي عن الفضيل عن ثور ، وبسند آخر عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن أبي ذر * عمدة عيون صحاح الأخبار : ٨٨ .

(٢) المستدرك على الصحيحن : ٦٠٨/٢ ، وقال : صحيح ، وأقره الذهبي * مجمع الزوائد : ، قال : أخرجه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح .

(٣) المستدرك على الصحيحن : ٦٠٨/٢ ، وصححه * سنن الترمذي : ٢٤٥/٥ ، قال : هذا حديث صحيح غريب من حديث أبي هريرة .

(٤) المصنف : ٤٣٨/٨ * مسند أحمد : ٦٦/٤ ، ٥٩/٥ ، ٣٧٩ * المعجم الكبير : ٣٥٢/٢٠ بسندين * كنز العمال : ٤٠٩/١١ ، عن ابن سعد والطبراني وغيرهما * مجمع الزوائد : ٢٢٣/٨ ، قال : رواه أحمد

وروى الطبراني بسنده عن أبي هريرة ، أن نبي الله صلى الله عليه وآله قال : كنت أول النبيين في الخلق ، وآخرهم في البعث [1] .

قال المناوي : لم يقل كنت إنساناً ، ولا كنت موجوداً ، إشارة إلى أن نبوته كانت موجودة فى أول خلق الزمان في عالم الغيب ... [2] .

وقال السبكي : إن النبوة وصف لا بد وأن يكون الموصوف به موجوداً ، وإنما يكون بعد بلوغ أربعين سنة ، فكيف يوصف به قبل وجوده وقبل إرساله ، وإن صح ذلك فغيره كذلك ، قلت : قد جاء إن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد ، فقد تكون الإشارة بقوله : كنت نبياً ، إلى روحه الشريفة ، أو إلى حقيقته ، والحقائق تقصر عقولنا عن معرفتها ، إنما يعلمها خالقها ، ومن أمده بنور إلهي ، ثم إن تلك الحقائق يؤتي الله كل حقيقة منها ما يشاء في الوقت الذي يشاء ... [3] .

ولننقل : ما قاله آية الله الشيخ مسلم الداوري دام ظله الشريف بعد أن سرد الأحاديث عن طريق الخاصة والعامة الدالة على الوجود النوري للنبي صلى الله عليه وآله ، قال : يستفاد من مجموع الأحاديث عدة أمور مشتركة وهي :

١ / أن للنبي صلى الله عليه وآله وجوداً نوريّاً لا هوتياً ، كما أن له صلى الله عليه وآله وجوداً جسميّاً ناسوتيّاً ، فله وجودان .

٢ / أن وجوده النوري نابع من نور الله عز وجل ، وهو المسمىٰ بنور الأنوار .

٣ / أن وجوده النوري كان قبل وجود جميع المخلوقات ، حتى الملائكة والأرض والسماء .

والطبراني ، ورجاله رجال الصحيح * السنة لابن أبي عاصم : ١٧٩ ، قال الألباني : إسناد صحيح ، رجاله كلهم ثقات ، رجال الصحيح .

(١) مسند الشاميين : ٤/٣٤ .

(٢) فيض القدير : ٥/٦٩

(٣) الخصائص الكبرى للسيوطي : ٤ ، بعد أن سرد الروايات الدالة على ذلك ، وقد أجاد .

٤ / أن وجوده النوري كان يعبد الله ويهلله ويسبحه ويحمده ، وأن الملائكة تعلمت عبادة الله عز وجل منه صلى الله عليه وآله في ذلك العالم .

٥ / أن وجوده النوري صلى الله عليه وآله كان سبباً وواسطة في خلق جميع الممكنات .

٦ / أن وجوده النوري كان متحداً مع الوجود النوري لأمير المؤمنين عليه السلام ، أو أن نوره عليه السلام نابع من نور النبي صلى الله عليه وآله ، وكذلك بقية الأئمة عليهم السلام ، وإنما افترقا في صلب عبد الله وأبي طالب ، على ما تضمنته جُلّ الأحاديث ، إن لم يكن كلها [١] .

وقال سماحة الشيخ عبد الله معرفي أدامه الله تعالى : « إن مقتضى كونه مخلوقاً من نور أنه حائز على جميع الكمالات ، ومنها العلم بالكتاب والإيمان ، وأن نوره كان غاية للخلق قبل عالم الدنيا ، فيدلّ على أنه أكمل الكل في جميع المراتب ، فلا يكون فاقداً لكمال من كمالات الأنبياء والملائكة في لحظة من لحظان الدنيا ، كما أننا في مقام بيان واقع حال رسول الله صلى الله عليه وآله منذ ولادته ، بل منذ خلقه الله سبحانه في تلك النشأة ، ولا شكّ أن ذلك داخل في الغرض ، فإن له نظراً مباشراً إلى واقع الآية ـ لا ألفاظها ـ » .

خلاصة الكلام :

فهو صلى الله عليه وآله نبياً قبل خلق آدم عليه السلام ، عالم بأسرار الدين القيم وتفاصيل الشريعة المقدسة آنذاك ، وكلما نزل إلى عالَم وجودي آخر استنار ذلك الوجود بنوره وكمالاته ، **فهو لا يستكمل بوجوده الأرضي كغيره** ، بل إن الله عز وجل خلقه بجعل واحد بسيط حاوياً لكل الكمالات المتصورة لله عز

(١) النبي الأعظم صلى الله عليه وآله ووجوده النوري : ١٦١ ، ثم بعد ذلك شرع في شرح وبيان كل ما تقدم ، أدام الله وجوده الشريف ، وكتابه هذا حقيق بأن يقرأ ويدرس ويباحث .

وجل ، فهو كلمته التامة ومثله الأعلى وحجابه الأعظم ، الذي لا سبيل لمعرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته ـ تكويناً وتدويناً ـ إلا بتوسطه صلى الله عليه وآله .

ومنه تعرف وجه التطبيق الخاطىء في القول الرابع ، والذي فيه : « إن كل إنسان فى نفسه فاقد للهداية ، مفتقر إلى هداية الحق تعالىٰ ، ولا يستثنىٰ منه النبي صلى الله عليه وآله أيضاً » فهو أمر صحيح ، ضروري الاعتقاد، إلا أن وجوده وصفاته وكمالاته صلى الله عليه وآله ليس بجعل مركب ، حتى يستساغ نسبة ذلك في حقه صلى الله عليه وآله ، بمعنى أن الله عز وجل خلق النبي صلى الله عليه وآله أولاً ، ثم جعله سمعياً بصيراً عالماً كاملاً ، بل بجعل واحد بسيط قال : كن محمداً ، فكان خلقاً نورانياً حاوياً لكل الصفات الجلالية والجمالية ، لا ساحل ولا حدود لكمالاته ، إذ هو آية الحق تعالى ومثله الأعلى ، وظله الممدود الحاكي لكل اسمائه وصفاته وأفعاله .

بل وصف «ضالاً» والمقصود منه اسم الفاعل لا يستساغ اطلاقه على الاعلام والأعاظم الذين لم ينحرفوا عن الجادة والطريقة المثلى منذ نعومة أظفارهم ، فلا يقال لمن ولد بدعاء الحجة عليه السلام وهو المقدّس الشيخ الصدوق كان «ضالاً» بمعنى : « إنه كان فاقداً للهداية بنفسه ، مفتقر إلى هداية الحق تعالىٰ » ، فإن ذلك يعّد سوء أدب مع أولياء الله عز وجل ، والنفس غير قادرة على أن تقول : « كان السيد الخوئي رحمه الله ضالاً فهداه الله تعالى » بمعنى أنه مفتقر للهداية من الله تعالى ، فكيف لا يكون الأمر كذلك مع النبي الأمي صلى الله عليه وآله ، الذي يجب على الكل مراقبة تصوراته وأحاسيسه في أن تستشعر أو أن تتصور شيئاً يخالف مقتضى التقديس والتنزيه والتطهير .

نعم تصور وإطلاق عدم العلم يصح ويحسن في غير المعصومين عليهم السلام ، وهو استعمال قرآني كما هو نص : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم

لا تعلمون شيئاً ثم جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ .

عصمنا الله عز وجل من الخطأ ، وأبعدنا عن مصايد الشيطان ، وستر الله علينا دنياً وآخرة .

ولنختم الكلام بهذه الرواية الصحيحة التي هي الفارقة بين أقوال أهل الإيمان ، وأقوال غيرهم ، المروية عن سلمان الفارسي عليه السلام مخاطباً لعمر بن الخطاب بعد قال له : أخبرني من أنت ، ومن أبوك ، وما أصلك ؟ فقال : أنا سلمان بن عبد الله ؛ كنت ضالاً فهداني الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وآله ، وكنت عائلاً فأغناني الله بمحمد صلى الله عليه وآله ، وكنت مملوكاً فأعتقني الله بمحمد صلى الله عليه وآله ، هذا نسبي ، وهذا حسبي [1] .

وهذا حسبي ونسبي وأصلي ومبتدئي ومنتهاي وختمي ، وهو كذلك حسب ونسب وبداية ونهاية كل مؤمن ومؤمنة ، فبهم بدأ الله ، وبه يختم الله .

والحمد لله رب العالمين .

---

(١) الكافي الشريف : ١٨١/٨ ، بسند حسن كالصحيح ـ بل صحيح ـ عن علي بن إبراهيم عبد الله بن محمد بن عيسى الأشعري بنان صفوان بن يحيى عن حنان عن أبيه سدير عن الإمام الباقر عليه السلام * رجال الكشي : ٥٩/١ ، بسند صحيح عن حمدويه بن نصير عن محمد بن عيسى الأشعري أو اليقطيني عن حنان .